مادة الأدب الإسلامي / المرحلة الثانية

د. ميسون محمد عبد الواحد

المحاضرة الثالثة عشرة

عنوان المحاضرة: (موضوع الهجاء والنقائض)

أولا/ الهجاء:

وهو سلب المهجو لقيم المجتمع التي يعتز بها العربي ، فيعمل الشعراء على سلب مهجويهم من كل ما يرفع شأنهم في نظر الناس أو على الأقل من عناصر الشخصية السوية في المجتمع المسلم.

ويعد هذا الغرض من الأغراض المهمة التي كان لها دور كبير في نصرة الإسلام والوقوف بوجه الأعداء. فكما تصدى المشركون الى هجاء المسلمين والرسول – صلى الله عليه وسلم– أمر النبي شعراءه بالرد عليهم. ولعل قائلا يقول بأن الرسول نهى عن الشعر الذي يثلب الأعراض ويهتك الأستار فكيف نقول بأنه أمر شعراءه بهجاء المشركين؟

من الواضح أنه لا تعارض بين القولين فالمشركين أعلنوا حربا شعواء ضد الرسول الكريم والمسلمين فكان لا بد أن يأمر الرسول بالرد عليهم بسلاحهم نفسه وذلك لأنه ما زال يخاطب أناسا ما زالوا تاريخيا في فكر قبل الإسلام أو منتمين الى عصره في قيمهم التي يعتدون بها أو في المعايب التي تثيرهم وتغيضهم.

ولذلك نلاحظ أن هجاء حسان قائم على عنصرين:

١- عنصر شتم قريش والمشركين بالمعايب التي تغض من شأنهم في عيون القبائل التي لم تسلم بعد وهو يماثل الهجاء في العصر الجاهلي.

٢- عنصر إسلامي يقابل الهجاء الجاهلي وهو مقارنة حال قريش والمشركين بحال المسلمين المؤمنين المؤزرين بنصر الله تعالى وملائكته ويحيطهم النبي بهدى الدين ونور النبوة ويطلبون ثواب الله ودخول جنته.

ومن ذلك ما قاله حسان:

لقد لعن الرحمن جمعا يقودهم دعي بن شجع لحرب محمدِ

مشوم لعين كان قدما مبغضا يبين فيه اللؤم من كان يهتدي

فأنزل ربي للنبي جنوده وأيده بالنصر في كل مشهدِ

فالبيت الأول والثالث يمثلان النهج الإسلامي في الهجاء ، في حين يمثل البيت الثاني النهج الجاهلي في الهجاء.

على أن هذه القيم الإسلامية الجديدة التي دخلت في الهجاء استمرت في عصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي. وعادت الى طبيعتها الجاهلية في العصر الأموي ولا سيما في النقائض.

ثانيا/ النقائض:

وهو فن شعري يقوم أساسا على الهجاء ولكنه يختلف عن خصائص الهجاء الخالصة في كونه يستلزم وجود شاعر آخر يرد على الشاعر الهاجي بقصيدة تقوم على الوزن والبحر والقافية التي قال فيها الشاعر الأول فتتشكل قصيدتان نقيضتان تشتركان في المعاني العامة لأن الشاعر الناقض لا بد أن يهدم المعاني الهاجية أو المادحة أو المفتخرة ويأتي بما يبطلها فخرا بنفسه وقومه وهجاء للشاعر وعشيرته.

وقد شاع الهجاء بهذا النوع من النقائض بين شاعرين أمويين كبيرين هما جرير والفرزدق في البصرة أولا فضلا عن الأخطل الذي انتصر للفرزدق ضد جرير. وأنقسم الناس الى فريقين أحدهما يفضل الفرزدق والآخر يفضل جريرا. لم تعد المسألة في النقائض كامنة في المهاجاة القبلية وإنما تحولت الى نوع من المنافسة الأدبية الفنية بين الشعراء والى ضرب من المتعة الفكرية والشخصية.

قال جرير يهجو الأخطل:

كذب الفرزدق إن قومي قبلهم قسطت فوارسهم على النعمان

إن القصائد يا أُخيطل فاعترف وصلت إليك مجرة الأرسان

وقال الأخطل يهجو جريرا:

أجرير إنك والذي تسمو له كعسيفة فخرت بجدج حصان

أتعد مأثرة لغيرك فخرها وسناؤها في سالف الأزمان

وقال الفرزدق يرد على جرير:

يـابن المراغـة والهجـاء إذا التقـت أعناقـــه وتماحـــك الخصـــمان

مــا ضــر تغلــب وائــل أهجوتهــا أمــا بلــت حــين تنــاطح البحــران

أهم الخصائص والملاحظات التي تمتاز بها النقائض:

١-إنها جميعا قامت على أكثر من غرض فجرير بدأها بمقدمة طللية ثم أتبعها بهجاء وفخر وتعداد لمآثر قومه. والأخطل بدأها بمقدمة خمرية وأتبعها بهجاء وفخر ومديح لقوم الفرزدق. أما الفرزدق فإن مقدمته بلا مقدمة تقليدية مبديا حماسته لنصرة الأخطل وقومه، وكأن حماسه في الرد على جرير لم يمهله للوقوف على الأطلال.

٢-وطبيعة النقيضة بين الشعراء الثلاثة تقوم على نقض ما يقوله الخصم، فالبادئ هو جرير بالافتخار بقومه، وشتم تغلب، ووصفها بالعبودية، فقام الفرزدق بنقض قوله وتعداد فوارس تغلب(قوم الأخطل) وذكر انتصاراتهم. فعمل الأخطل على الانتصار للفرزدق وذكر صورة قبيلة جرير الذليلة وأن المجد كله في قوم الفرزدق وفرسانهم من آل دارم.

٣-القصائد حافلة بتراث القبائل التي ينتمي إليها الشعراء فهي تعد سجلا لمآثرهم وأيامهم وحروبهم وأسماء أبطالهم بغض النظر عن نقض الشاعر لفخر الآخر أو مديحه.

٤-يلحظ في شعر النقائض اختلافا في طرائق تعابيرهم في الخطاب فهم بين اسلوب الخطاب المباشر أو الحديث بلغة المفرد أو الجماعة سواء المخاطبين منهم أو الغائبين.

٥-نجد في النقائض اتجاهات الهجاء في العصر الأموي كافة من الهجاء الشخصي الذي يحمل سمات العصر الى الهجاء القبلي الذي يحاكي ظاهرة عرفت قبل الاسلام الى الهجاء السياسي حين يستغل شاعر النقائض موقف قبيلة المهجو من حدث سياسي ما ويحاول اقحامه ليكون جزءا مما يهدمه من أمجادها وصورة لما يبنيه من أمجاد قومه انطلاقا من موقفها السياسي.

٦-وهناك سمة مهمة في النقائض وهي لجوء أصحابها الى السخرية واظهار الصور بشكل ساخر يثير الضحك والاشمئزاز في نفوس السامعين لما فيها من مجون ورفث وتجاوز على القيم العامة والخاصة للمهجو وقومه.